تعريف بكتاب: الحرم المكّي... (١)

تأليف: أ. د. عبدالملك بن دهيش
تقديم وتعريف: محسن الأسدي

هناك حيث ظلّت بلاد الحجاز، مكّة والمدينة وما بينهما وما حولهما، منبع الإسلام، تلك الرسالة السماوية العظيمة التي اختارها الله تعالى مصدر نور ﴿يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ سُبُلَ السَّلاٰمِ...﴾ وأرضاً صالحةً لدعوة وجهادرسول‌الله ﷺ وآله‌الطيّبين وصحبه المنتجبين والشهداء والصالحين... ولها أن تفتخر بكلّ هذا وتسمو به على غيرها من بلدان الأرض.

ظلّت هذه الأرض المباركة مصدر الخير والعطاء، مهداً لكلّ هذا ولكثير من العلماء والفقهاء والمؤرّخين والأدباء والشعراء.. الذين أثروا بما تفضّلت به جهودهم من أعمالٍ جليلة ومواقف كبيرة، تراثنا الإسلامي ومكتباتنا في شتّى صنوف المعرفة فقهاً وتفسيراً وتأريخاً وآداباً.. وما زالت هذه الأرض الولود ترفدنا بين حين وآخر بعالم زاهد ومؤرّخ جليل واستاذ خبير وأديب بارع، تزهو بمحاضراتهم ومؤلّفاتهم مجامعنا العلمية ومحافلنا الثقافية ومنتدياتنا الأدبية...

ومؤرّخنا الباحث الدكتور عبد الملك بن عبدالله بن دهيش واحد من

ذلك الجمع الطيّب، ومن الذين اتّصفت شخصياتهم بأجمل ما يتحلّى به الباحث العلمي، وهو الإنصاف واحترام الآخر وعدم التحامل على مخالفه فيما يؤمن به وفيما يطرحه من أفكار، فتراه يستمع إلى آرائهم، فيسلّم للصحيح منها، ويناقش غيره بكلّ سعة صدر وحسن خلق... كلّ ذلك لمسناه في عدد من المؤرّخين في بلد الحرمين الشريفين، وعبر حوارات تتّسم بالمودّة وبالبحث عن الحقيقة أينما وجدها الإنسان التقطها، جرت بينهم وبين آخرين من مذاهب أخرى.

وقد التحق الدكتور بن دهيش بأخلاقه ودقّته العلمية بركب المؤرِّخين المنصفين، الذين خدموا التراث خدمة علميّة مخلصة تستحقّ الوقوف عندها، والاستنارة بما حوته، والاستفادة ممّا توفّرت عليه.

ونحن إذ نقف عند هذا المحقّق الباحث ومؤلّفاته نقدّم خدمة وإن كانت متواضعة لتراثنا بذكر عَلَمٍ من أعلامه المعاصرين، الذين تمتّعت حياتهم الشخصية بسيرة طيّبة، وحياتهم العلمية الخصبة والغنيّة بمنهج علمي رائع، فبوقفتنا هذه نكشف للقارئ الكريم والمتتبّع الجاد أهمّ خصلة في هذا الرجل تنفع كثيراً كلّ من أراد أن يكون منصفاً دقيقاً في علاجه للمشاكل وفي مناقشاته للأحداث وفي سرده للوقائع ودراستها؛ ليُعطي بعد ذلك حكمه فيها بلا تحيّز ولا تطرّف..

فإنصافه ومنهجه العلمي ودقّته العالية هو الخصلة الرائعة فيما يؤلّف ويكتب وفي دراساته وتحقيقاته، فقد كان يتمتّع بنَفَسٍ علمي وعلمي فقط بعيداً عن الضغائن التي كثيراً ما اتّصفت بها أقلام آخرين، فكانوا من الذين ابتعدوا عن الأمانة العلمية في نقدهم وفي إجاباتهم عمّا يطرح عليهم من أسئلة، ولم يكتف بعضهم بهذا القدر ويقف عنده، بل راح يلوذ بشتائم واتّهامات للآخرين ممّن هم علىٰ غير مذهبه، ما لها من حجّة ولا دليل.

أمّا الدكتور عبد الملك، فمع أنّه كان مكثراً في أعماله وانتاجاته، لكنّها لم تكن علىٰ حساب أمانته العلمية ودقّتها... ولم تزلّ به قدم، ولم يتحامل على الآخر، وليس في هذا المجال فقط. بل كان مخلصاً أيضاً فيما تولّاه من مناصب إدارية وعلمية أتاحت له خدمة أهدافه وآماله، التي هي الأُخرى تنصبّ في خدمة ديننا الإسلامي الحنيف وتراثنا القيّم.

ومعالم شخصيته بدت لا من خلال ما كتبه فقط، بل من خلال مواقفه الرصينة، أيضاً، فتراه ـ مثلاً ـ مع أنّه حنبلي المذهب بل من علمائه، إلّا أنّ بحثه عن الحقيقة يشكّل في حياته مراده الأوّل وهدفه الأسمى من أي لسان صدرت ومن أيّ جهة انبثقت، بعيداً عن التحامل والتعصّب الأعمى.

وهذا ما جعله ينصف الآخرين من مذاهب أخرى، ويدافع ويدرأ عنهم ما يثيره الآخرون من شبهات واتّهامات، فتجده ـ بعد درسٍ وتحقيقٍ ـ ينأى عن الأفكار الفاسدة والأقلام الحاقدة، وهذا هو شأن الباحث المنصف، والأخلاقية العالية، التي يجب أن يتمتّع بها كلّ من يريد أن يحترم فكره وعقله وقلمه.

فتركت مواقفه هذه وجهوده العلمية وأنشطته الأُخرى بصمات واضحة نتلمّس من خلالها منهجاً علميّاً دقيقاً تحلّت به هذه الأنشطة وتلك الخدمات، ومن يريد معرفة الرجل، فليرجع وليحتكم إلى ما تفضّلت به يداه في كلّ الموارد التي توفّر عليها بوعي وبصيرة.

وختاماً وقبل أن نتحدّث عن نسب الرجل وأُسرته، وأنشطته وجهوده العلمية، وما توفّرت المكتبة الإسلامية عليه من مؤلّفاته وآثاره حتّى غدت زاهيةً بما خطّته أنامله، وما أفاءه علينا من معرفة جمّة وعلمٍ غزير.

ألخص قولي فيه ـ فقد عرفته من خلال كتبه، وممّا سمعته عنه ـ أنّ هذا الرجل عرف في الأوساط العلمية وأوساط المؤرِّخين بحذاقته، وبدماثة

الخلق، وسعة الصدر، وحبّه للرأي الآخر، وتقبّله للنقد، وبعده عن الطائفيّة والعصبيّة «دعوها فإنّها منتنة» هكذا عبّر عنها رسول الله ﷺ حينما كان يربّي أصحابه، ويحذّرهم من العادات الجاهلية وقذاراتها..

لهذا نرى الرجل في لقاءاته على كثرتها منفتحاً على الآخرين، يسمع لهم، ويجيبهم، بعيداً عن التوتّر والتعالي..

إنّ ما يتمتّع به الدكتور بن دهيش من صفات جعلت منه رجلاً يقبل عليه الآخرون بكلّ شوق وحبّ واحترام، كما راح يقدّم كلّ ما عنده من معرفة وعطاء لا يبخل بشيء منَّ الله به عليه.. حقّاً أنّها زكاة العلم، وما أعظمها من فضيلة أن يتّصف بها طلبة العلم والمعرفة!

وقد هيّأته هذه الخصال العلمية والأخلاقية لأن يدرج اسمه مع كبار المؤرِّخين والمؤلِّفين، خاصّة الذين حظيت أقلامهم بشرف الكتابة عن الحرم المكّي وتحقيق بعض ما ألّف بخصوصه.

ابن دهيش نسباً وأُسرةً

وجدير بنا ونحن نقرأ هذا الأثر القيّم أن نعرج علىٰ مؤلّفه، لنلقي نظرة عليه أسرةً وعلماً وأنشطةً.

إذن تعالوا لنقرأ معاً ما ذكر عن أسرته موطناً ونشأةً؛ قديماً وحديثاً وعن مؤلّفاته وأنشطته والوظائف التي تقلّدها. فهو: معالي الدكتور عبد الملك ابن عبدالله بن عمر بن دهيش، من مواليد مدينة حائل، التي تقع في شمال المملكة العربية السعودية.

فقد كان موطن هذه الأُسرة قديماً يقع بجبلي أجا وسلمى، ويعرفان الآن بـ(حائل)، وقد انتقل مؤسّسها عبدالله الشمري إلى منطقة سدير سنة ٨٢٠هـ.

وفي هذه السنة عمرت بلدة المجمعة المعروفة، عمّرها عبدالله الشمري،

من آل ويبار من عبدة، من شمّر، وكان عبدالله المذكور من المقرّبين عند حسين بن مدلج بن حسين الوائلي ـ رئيس بلدة التويم، فلمّا مات حسين، قدم عبدالله الشمري المذكور على ابنه إبراهيم بن حسين في بلدة حرمة[١]، فطلب منه قطعة من الأرض، لينزلها ويغرسها هو وأولاده، فأشار أولاد إبراهيم على أبيهم أن يجعله أعلى الوادي، لئلّا يحول بينهم وبين سعة الفلاة والمرعى، فأعطاه موضع بلد المجمعة، وصار كلّما حضر أحد من بني‌وائل، وطلب من إبراهيم ابن حسين ومن أولاده النزول عندهم، أمروه أن ينزل عند عبدالله الشمّري، طلباً للسعة، وخوفاً من التضييق عليهم في منزل وحرث وفلاة[٢].

وقد ذكر محمّد العثمان القاضي في روضة الناظر: أنّ عبدالله الشمري كان أمير المجمعة وقاضيها والتفّ إليه من الحاضرة والبوادي من حولها حتّى أصبحت عاصمة سدير[٣].

ونقل الشيخ حمد الجاسر عن بن لعبون في تاريخه كلامه عن نسب آل مدلج[٤].

---

(١) عمّرها إبراهيم بن حسين بن مدلج الوائلي سنة ٧٧٠ تقريباً، وذلك أنّ إبراهيم بن حسين المذكور انتقل من التويم إلى موضع بلد حرمة، وهي مياه وآثار منازل، قد تعطّلت من منازل بني عايذ من بني سعيد، فعمّرها وغرسها هو وبنوه، ونزل عنده كثير من قرابته وأتباعه.

أُنظر: تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان (من ٧٠٠هإلى ١٣٤٠هـ) لإبراهيم بن عيسي ص ٣١.

(٢) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان (من ٧٠٠هإلى ١٣٤٠هـ) لإبراهيم بن عيسي، ص٣٢ ـ ٣٣، وأُنظر: روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين لمحمّد بن عثمان (قاضي عنيزة): ١ / ١٩٨.

(٣) المصدر نفسه ١: ١٩٨.

(٤) جمهرة أنساب الأسر المتحضّرة لحمد الجاسر ١: ٤٢٦.

وذكر ابن بسّام[١]: أنّ عبدالله الشمري من ويبار أحد بطون طيّ[٢] من عبدة من شمّر، وأولاده ثلاثة هم: سيف، ودهيش، وحمد[٣].

ودهيش له عدّة أولاد دبّ الخلاف بينهم وبين بني عمّهم سيف منذ سنة ٩١٤هـ وتحوّل إلى معارك هدرت فيها الدماء من الطرفين من أجل رئاسة بلدة المجمعة.

وكان أهل حرمة قد وعدوا آل دهيش النصرة، فيما بادر جماعة من أهل المجمعة وأصلحوا بينهم[٤].

ومع هذا ظلّ الخلاف والصلح يتناوبان بينهما حتّى ارتحل آل دهيش إلى مرات، التي تبعد حوالى ١٤٥كم في الشمال الغربي لمدينة الرياض في منطقة الوشم، ومرات هذه مدينة قديمة سُكنت قبل الإسلام ولا تزال مسكونة منذ ذلك الحين، وهي بلدة امرئ القيس[٥]، بعد أن لم يجد آل دهيش بدّاً من الرحيل من المجمعة وحرمة إلى مكان يجدون فيه الطمأنينة والاستقرار، وقد ملكوا عدّة عقارات بمرات وذلك في أوائل القرن الثالث عشر الهجري، ولهم حائط باسم (حويط دهيش) على يمين المتّجه شرقاً، ولا يزال قائماً حتّى الآن، وبقي أفراد هذه الأُسرة في هذه المدينة يعملون بالتجارة حتى سنة ١٢٣٦هـ، فساعدوا عبدالله بن حمد الجبري، الذي تأمّر على بلدة مرات في زمن تركي بن عبدالله بن محمّد بن سعود، مؤسّس

(١) تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق لعبد الله بن محمّد البسام ٢: ٧ / ٧١ـ٧٢.

(٢) أُنظر المنتخب: ٨٥، ومعجم قبائل العرب ٢: ٦٦٨، وجمهرة أنساب الأسر: ٨٨٧، ومعجم قبائل المملكة العربية السعودية، وكلّها للشيخ حمد الجاسر: ٨٦٦.

(٣) أُنظر: جمهرة أنساب الأسر لحمد الجاسر ١: ٤٢٧ نقلاً عن تاريخ ابن لعبون.

(٤) تحفة المشتاق ٣ / ٥ / ١٩.

(٥) أُنظر: المنتخب للمغيري: ٢٤٥، ٣٩٣.

الدولة السعودية الثانية[١].

وبعد أن قامت الدولة السعودية الثانية، وخلال الفترة الثانية من حكم فيصل بن تركي الذي عيّن دخيل الله بن دهيش أميراً على بلدة مرات سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م تقريباً. فاستمرّ دخيل الله أميراً لهذه البلدة طوال فترة حكم فيصل بن تركي وحتّى وفاته في عام ١٢٨٢هـ. فرحل عنها سنة ١٢٨٣ مع أسرته إلى الاحساء وبقي فيها يعمل بالتجارة.

ولمّا ضمّت الأحساء إلى السعودية على يد الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٣٣١ أصبح عمر بن عبدالله بن دخيل الله بن دهيش وهو جدّ الدكتور عبدالملك صاحب هذا الكتاب، من المقرّبين لأمير الأحساء عبدالله بن جلوي، لفراسته وذكائه، وهو لم ينجب سوى والد الدكتور عبد الملك، فضيلة الشيخ عبدالله بن عمر بن دهيش، وقد تولّى عدّة مناصب في سلك القضاء، تولّى آخرها وهو رئاسة المحاكم الشرعية بمكّة المكرّمة بناءً على الأمر الملكي بتاريخ ١٧ / ١٣٧١/٩هـ.

وكان لفضيلته الكثير من المؤلّفات والمحقّقات بلغت أكثر من عشرين كتاباً، وله مكتبة عامرة تضمّ كثيراً من المطبوعات والمخطوطات، ما زالت بحوزة ابنه فضيلة الدكتور عبد الملك بعد أن توسّعت بفضل ما ضمّه الدكتور إليها ممّا لديه من كتب ومخطوطات.

مؤهّلاته العلمية

لفضيلة المؤلّف مؤهّلات ذاتية أكسبته بدورها مؤهّلاتٍ علمية، فبعد أن تلقّى تعليمه الابتدائي بالأحساء، ثمّ في الخبر، فالمدرسة الرحمانية بمكّة المكرّمة، أنهى الدراسة المتوسّطة والثانوية في المعهد العلمي السعودي بمكّة المكرّمة.

(١) أُنظر: تحفة المشتاق: ٢٨٤.

حصل شيخنا المؤلّف على شهادة الماجستير عن تحقيقه لكتاب (أخبار مكّة في قديم الدهر وحديثه) لمحمّد بن إسحاق الفاكهي.

ونال بعدها الدكتوراه عن أُطروحة، وهي كتابه هذا الذي بين أيدينا.

فيما نال درجة الاستاذية في أُطروحته الأخرىٰ، وكانت بعنوان (مصطلحات الفقه الحنبلي).

أساتذته:

ـ والده فضيلة الشيخ العلّامة عبدالله بن دهيش.

ـ فضيلة الشيخ العلّامة عبد الله خيّاط.

ـ فضيلة الشيخ العلّامة يحيى أمان ـ مساعد رئيس المحكمة الكبرى بمكّة المكرّمة.

ـ فضيلة الشيخ العلّامة حسن مشاط ـ القاضي بالمحكمة الكبرى بمكّة المكرّمة، والمدرس بالمسجد الحرام.

ـ فضيلة الشيخ أحمد علي أسد الله ـ مدير كلّية الشريعة.

ـ فضيلة الشيخ العلّامة علي الهندي ـ المدرّس بكلّية الشريعة بمكّة المكرّمة، والمدرّس بالمسجد الحرام.

الإجازات العلميّة:

ـ حصل على إجازة في السيرة النبويّة وغيرها من الكتب العلميّة من الشيخ / أبو الحسن علي الحسني الندوي.

ـ حصل على إجازة في رواية أحاديث الصحيحين والسنن الأربع، ومسند الإمام أحمد، وسنن الإمام البيهقي، وسنن الدارقطني، ومسند أبو داود الطيالسي من الشيخ / سيّد صبحي البدري السامرائي.

ـ حصل على شهادة تقديرية لأعماله في الفكر الإسلامي ودراساته الأصيلة عن البلد الحرام من سوق الفسطاط للشعر والنقد بمصر.

ـ حصل على الزمالة الفخرية لعام ١٩٩٥ م لرابطة الأدب الحديث من الرئيس محمّد حسني مبارك بمصر.

ـ حصل على إجازة في رواية الحديث وعلومه من الشيخ عبدالله ابن الصديق من المغرب.

ـ حصل على إجازة في الحديث وعلومه من الشيخ محمّد بن ياسين الفاداني من علماء الحرم المكّي.

ـ حصل على شهادة تقدير من الملك خالد بن عبد العزيز في عام ١٤٠١هـ على دوره في نشر العلم وإنارة الفكر النافع المفيد.

نشاطه العلمي:

١ ـ حقّق كتاب «أخبار مكّة في قديم الدهر وحديثه» للفاكهي في ستّة مجلّدات وطبع طبعتين.

٢ ـ صنّف بحثاً بعنوان «الحرم المكّي الشريف والأعلام المحيطة به»، ويعدّ هذا أوّل دراسة تأريخية وميدانيّة في هذا المجال.

٣ ـ حقّق كتاب «جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن» للإمام ابن كثير في اثني عشر مجلّداً.

٤ ـ حقّق كتاب «شرح الزركشي على مختصر الخرقي» في أربعة مجلّدات.

٥ ـ حقّق كتاب «معونة أولي النهى ـ شرح المنتهى» لابن النجّار الفتوحي الحنبلي، في ١٣ مجلّد.

والمجلّد الـ ١٣ خاصّ بمعجم الألفاظ الفقهية.

٦ ـ حقّق كتاب «الأحاديث المختارة» للمقدسي في ثلاثة عشر مجلّداً، وطبع ثلاث مرّات.

٧ ـ حقّق كتاب «المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح» للدمياطي وطبع إحدى عشرة طبعة.

٨ ـ علّق على كتاب «وظائف شهر رمضان» لابن رجب الحنبلي.

٩ ـ حقّق كتاب: «إرشاد أولي النهى لدقائق المنتهى» للشيخ منصور بن إدريس البهوتي الحنبلي (ت ١٠٥١هـ) وهو حاشية على متن المنتهى قبل أن يشرحه، ويقع في مجلّدين.

١٠ ـ حقّق كتاب: «الممتع في شرح المقنع» للشيخ زين الدين أبي البركات المنجي بن عثمان بن أسعد بن المنجي التنوخي المصري الدمشقي الحنبلي (٦٣١ـ ٦٩٥هـ) في ستّة مجلّدات.

١١ ـ صنّف كتاباً عن المشاعر المقدّسة بمكّة المكرّمة اسمه حدود وأحكام المشاعر المقدّسة (منى ـ عرفات ـ مزدلفة) يبيّن فيه حدودها وأحكامها.

١٢ ـ صنّف كتاباً سمّاه مصطلحات الفقه الحنبلي، اعتمد فيه على علماء الحنابلة ومصطلحاتهم في مؤلّفاتهم، ويقع في مجلّد واحد.

١٣ ـ حقّق كتاب الواضح في شرح مختصر الخرقي لنور الدين عبد الرحمن بن عمرو أبي القاسم بن علي بن عثمان الضرير (ت ٦٨٤هـ) في خمسة مجلّدات.

١٤ ـ حقّق كتاب المستوعب لنصير الدِّين السامري الحنبلي في ثلاثة مجلّدات.

١٥ ـ حقّق مسند أبي هريرة للإمام ابن كثير الدمشقي في مجلّدين.

١٦ ـ صنّف بحثاً عن تعلّم البنات في مجلّد واحد.

١٧ ـ له العديد من المقالات العلميّة المنشورة في الصحف والمجلّات العلمية المتخصّصة.

١٨ ـ THE HOLY SHRIFE OF MAKKA & THE BOUBDARY MARKSSURROUBDING IT: A HISTORICAL& FIDLD STUDY

وهو ترجمة لكتابه «الحرم المكّي الشريف والأعلام المحيطة به».

١٩ ـ له العديد من الدراسات والتحقيقات تحت الإعداد.

٢٠ ـ جملة ما صدر له حتّى تاريخه (٧٩) تسعة وسبعون مجلّداً.

٢١ ـ أصدر على نفقته كتاب التاريخ القويم لمكّة والحرم الكريم، في ثلاثة مجلّدات في (٦ أجزاء) بعد أن صحّحه وقدّم له.

وللدكتور أنشطة أخرىٰ كثيرة عبر الوظائف المتعددة التي تقلّدها في بلده، في القضاء والتعليم والتربية والإدارة، وعبر المؤتمرات والندوات واللجان، التي كان له دورٌ بارز فيها.

* * *

تمهيد:

إنّ ممّا لا يختلف فيه اثنان أنّ الحديث أو الكتابة أو البحث عن الحرمين المباركين، الحرم المكّي، الحرم المدني، له من جلال الشأن وعلوّ القدر ما لا يضاهيه شيء أبداً، خاصّة إذا كان الباحث ممّن يرجو الله واليوم الآخر، فيدفعه هذا الاهتمام الدقيق بهما، وتقصّي كلّ شؤونهما، وما يتضمّناه من تاريخ طويل ضارب في عمق التاريخ، وما يستوحيه الإنسان من خلال تواجده فيهما من مفاهيم إيمانية وأخرى أخلاقية وسياسيّة واجتماعية... ويستحضر تلك المواقف الجليلة لأولئك الأفذاذ، الذين قدّموا كلّ غالٍ في سبيل المحافظة عليهما ورعايتهما وإيصالهما للآتي من الأجيال..

ولئن كان الحرم المكّي قد تظافرت عليه جهود أنبياء ثلاثة (إبراهيم وإسماعيل ومن ثمّ رسول الله ﷺ) حتّى صار بالصورة، التي أرادتها السماء ﴿مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ و﴿قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ و﴿حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وليكون مكاناً لعبادة الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ

مَعْلُومَاتٍ...﴾ و..

فإنّ الحرم المدني كان مديناً لرسول اللهﷺ فقط وفقط، الذي ما إن وطأت قدماه المباركتان تراب يثرب، وما إن ضمّ ترابها جسده الشريف حتّى صارت المدينة حرماً آمناً بعد مكّة في المنزلة، تشتاق إليها ـ كمكّة ـ الأرواح وتهفو إليها الأفئدة، ويتسابق إلى زيارتها جيل بعد جيل منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، فلا نرى حاجّاً لمكّة أو معتمراً إلّا وقد أكمل حجّه أو عمرته بزيارة المدينة المنوّرة حيث المرقد الطاهر المبارك لرسول اللهﷺ، وحيث المراقد المباركة لأئمّة أهل البيتعليهم السلام، وللشهداء والصحابة رضوان الله عليهم، وحيث المعالم المباركة وآثار الرسالة الخالدة...

* * *

والكتاب الذي بين أيدينا واحد من تلك البحوث والمؤلّفات، إنّه «الحرم المكّي الشريف والاعلام المحيطة به»، وهو دراسة ميدانية، تاريخية، فقهية، كانت أُطروحةً نال بها المؤلّف شهادة الدكتوراه، كتاب قيّم جدّاً، ومهمّ، لايستغني عنه أيّ باحث أو متتبّع للحرم المكّي تأريخيّاً وفقهيّاً.. فأهمّيته الكبيرة وقيمته العلمية العالية يكتسبها هذا الكتاب من كونه دراسة خارج المكاتب المتعارفة للكتابة والتأليف، فهو أي المؤلّف لا يكتفي بأن ينزوي هنا أو هناك في زاوية من زوايا مكتبته أو مكتبة أخرى يراجع كتاباً أو يتصفّح مصدراً، ليتّخذه مدركاً لرأي رآه، أو قولٍ ذكره، أو شيء آخر لابدّ له من توثيقه، وإلّا كان كلاماً أو شيئاً لا يتّصف بالعلمية والدقّة.. فهو إضافة إلى هذا الذي تعارف عليه الكتّاب والمؤلّفون والمحقّقون... راح يتسلّق تلّةً أو جبلاً ويهبط وادياً.. يستقبله قوم، ويتركه آخرون، يستضيفونه تارةً، وقد يبخلون عليه أخرى، يأمنون به مرّةً، ليحذروه

أخرى.. أسئلته التي يحملها في ذهنه، قد تتعبهم إجاباتها، وقد لا يحيطون إلّا بشيء يسير لا يغني ولا يسمن، إن لم يكن يجهلونها.. فصحيح هم من أهل هذه المنطقة، إلّا أنّهم ليسوا بالضرورة يحيطون بعلمٍ عنها أو بإثارةٍ منها.. فيقبض على ما ينفعه..

إنّها دراسة ميدانية، مصادرها مواضع منبثّة هناك بعيداً لا تصلها إلّا بشقّ الأنفس، وأخرى أبعد منها، الوصول إليها أمر يحتاج إلى صبر ومصابرة، بل ومرابطة تكلّف الباحث جهوداً كبيرة وآلاماً كثيرة، والعجيب في الأمر أنّ هذا الرجل الصالح الصابر المثابر الدؤوب، لم يتهيّب ذلك، ولم ينكل عن مهمّته التي عاشها حلماً سنين طويلة، وهاهي الآن أمامه واقعاً وإن كان مرّاً، إلّا أنّه سيترك له بضاعة كبيرة، وثماراً يانعةً، ونتائج جميلة، يزول بسببها كلّ ألم ومعاناة، بل وينسى عثراتٍ وصعاباً وإن كانت عظاماً، مقابل ما جناه من ثمارٍ وما حصل عليه من منافع..

* * *

قصّة الكتاب

بداية طيّبة، وطموح عظيم، ومنهجية عالية، هذا ما وجدناه فيما كتبه الدكتور بن دهيش من مقدّمة امتازت بجمالها وجاذبيّتها وهي ترسم، إضافة إلى منهجية بحثه وطريقة تحقيقه، آماله، ومعاناته التي لم تعقه عن عمله المنشود، بل راحت تدفعه هي الأُخرى إلى مزيد من البحث والتدقيق.

لقد حملت مقدّمة كتابه هذا أمله الذي تاقت نفسه إليه، بل وهمّه الذي رافقه لأكثر من عقدين: «ونفسي تتوق لمعرفة مواضع الحرم المكّي الشريف وذلك أنّه ـ وما زال الكلام للدكتور المؤلّف ـ كان لي شرف المشاركة في بعض اللجان المكلّفة بهذا الأمر بصحبة والدي فضيلة الشيخ عبدالله عمر بن دهيش﵀ عندما كان رئيساً لمحاكم مكّة المكرّمة، حيث

حوَّمنا فوق بعض مواضع حدود الحرم بطائرة عمودية (هيلكوبتر) فُرغت يومها لهذا الغرض، وبعدها بسنوات كنت قد أشرفت على وضع أحد العلامات الدالّة على موضع الحدّ، على أحد الطرق الرئيسيّة المؤدّية إلى البلد الحرام».

ابن دهيش يخطو الخطوة الأولى

ثمّ راح يواصل حديثه، الذي يبيّن فيه بداية مشروعه هذا حيث يقول:

«وبعد أن ابتعدت عن المشاغل الرئيسيّة، ومنها سلك القضاء، تاقت نفسي للاطّلاع على ما كتب عن تاريخ البلد الحرام، في القديم وفي الحديث، ويسَّر الله لي الوقوف على صورة من مخطوطة كتاب: «أخبار مكّة في قديم الدهر وحديثه» للإمام محمّد بن إسحاق الفاكهي المكّي، المتوفّى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري».

وبعد أن تمّ له تحقيق كتاب الفاكهي هذا، يقول: «عاد الشوق يحدوني من جديد لمعرفة مواضع حدود الحرم المكّي الشريف، والوقوف عليها، واشتدّت رغبتي في ذلك، وأخذ الحماس لهذا الأمر يزداد يوماً بعد يومٍ، كلّما تعمّقت في دراسة المباحث الجغرافية، التي ذكرها الفاكهي في كتابه».

لقد كان الدكتور بن دهيش منهجيّاً في تحقيقه لكتاب الفاكهي حيث لم يدع موضعاً ذكره الفاكهي وعرّفه، إلّا وقف عليه ووصفه وصوّره وحتّى لا يدع شيئاً إلّا وذكره عنه، وإن كان اسماً جديداً له.

ولم يتوقّف في عمله هذا عن سؤال أهل الخبرة فهم مصدر من مصادره، التي اعتنى بها في تحقيقه لكتاب الفاكهي، وفي كتابه الذي بين أيدينا، فيقول: «فلقد اتّصلت بأكثر من رجل ممن لهم خبرة في مواضع مكّة وجبالها ووهادها وأعلامها وشعابها، ومنهم خبراء عملوا في هيئة النظر في محكمة مكّة، تنتدبهم محاكم مكّة لفضّ المنازعات، وتثبيت الحدود

والحقوق والممتلكات في المواضع المحيطة بمكّة المكرّمة... وخلاصة القول: إنّ هؤلاء أعلم بالمواضع التأريخية والأثرية في مكّة، لا بل أعلم أهلها بأسماء جبالها، وريعانها وأوديتها وشعابها وآبارها وغير ذلك، وأعلم من عرفت بمواضع حدود الحرم المكّي الشريف... واختبرت أحدهم في أكثر من أمر، فوجدته من الصدق والورع والتحرّي.

وكنت أديم النظر في كتاب: «أخبار مكّة» للأزرقي، وفي كتاب الفاسي: «شفاء الغرام» و«العقد الثمين» ومصادر أخرى. وقلّما سمعت بكتاب يتحدّث عن البلد الحرام إلّا اقتنيته وقرأته...».

ويواصل حديثه قائلاً: «وكنت أتلهّف لمعرفة ما يتعلّق بالتاريخ المكّي في الكتب المخطوطة بخاصّة، فاجتمع لديّ في هذا الحقل الشيء الكثير؛ نظراً لاهتمامي الشديد في هذا الجانب من المعرفة.

ثمّ شرعت في تحقيق ما في بطون الكتب المخطوطة أو المطبوعة، وسألت واستفسرت من العلماء والخبراء، ودرست الخرائط الجغرافية والتأريخية، ثمّ قمت بمسح عملي لتلك المواضع وغيرها».

* * *

وقبل الخوض في الكتاب المذكور، أوجعني ما عثرت عليه من أخطاء نحوية وإملائية.. ما كان ينبغي أن تقع خاصّة وهو يصدر تأليفاً وطباعةً من بلد هو موطن القرآن واللغة وآدابها، آمل أن يُراجع الكتاب جيّداً قبل طبعته الأُخرى.

وهذه الملاحظة تجري أيضاً على الكتيب، الذي اعتمدتُه في ترجمة حياة المؤلّف، وقدفات المؤلّف أنيذكرفيه تاريخ ولادة الدكتور عبدالملك.

وأرجو ألّا أكون في هذا ممّن قيل فيهم:

فإن رأوا هفوةً طاروا بها فرحاً منّي وما علموا من صالح دفنوا

إنّ أوّل ما يراه القارئ لهذا الكتاب مقدّمةً راح قلمه الجميل، يصوّر همّاً عاشه عقدين أو أكثر، تتوق خلاله نفسه، لا لدنيا فارهة، بل لمعرفة أمر آخر، يترك له ذكراً طيّباً في الدُّنيا، وأجراً كبيراً في الآخرة، إنّه توقٌ جميل وأمل كبير، وعمل مشروع تباركه السماء، إنّه بحث في أقدس مكانٍ عرفته الدُّنيا، وفي أعظم بقعة باركتها السماء، وفي موضع أراد الله أن يعبد فيه، وفي وادٍ وصفته السماء بأقصر عبارة وأوضح بيان وأدقّ تعبير، إلّا أنّه يحمل معاني عظيمة إنّه ﴿وَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾. راح إبراهيم عليه السلام، عبر جهادٍ مرير، ومعاناة شاقّة يؤسس لمشروعٍ سماويّ كريم.

وتذكّرني معاناة الدكتور دهيش، وما قاساه في مهمّته هذه من آلام وعقبات، على قلّتها، بتلك التي عاناها ذلك الشيخ العظيم المبارك نبيّ الله إبراهيم، وقد اصطحب معه زوجته وابنه إسماعيل ومتاعه، وظلّ يغذّ السير على هدًى من الله تعالى، ويقطع الجبال والوديان والصحاري والفلوات حتّى وصل إلى وادٍ مجدب مقفر تحيطه الجبال وتحفّ به التلال.

وهو المكان الذي أمره الله تعالى بأن يلقي به بذور رسالة السماء إلى أهل الأرض، ويودع في ذلك الوادي فلذة كبده، وأهله وأعزّ ما عنده في وقت ما أحوجه إليهم! .. وكم هو عظيم وخطير أن يترك الزوج زوجته والأب ابنه في مثل ذلك المكان المخيف، وفي مثل تلك الظروف الصعبة والأحوال القاسية.. لكنّها الطاعة المطلقة لله والانقياد التامّ له.. فكانت حقّاً بذوراً مباركةً مورقة ذات بهجة، تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها، في عصره وفيما تلته من عصور، فغدت كلّها عصوراً نابضةً بآيات الإيمان، زاخرةً بمعالم الخير والعطاء، شاخصةً بالعزّ والشموخ، فقد راح هذا الوادي ـ الذي كان مقفراً في جوف تلك الصحراء النائية ـ راح يضجّ بحياة تدبّ في كلّ مظاهر دنياه، وتُضفى عليها السلامة والطمأنينة والأمان.

بين يدي كتاب

الحرم المكّي الشريف والأعلام المحيطة به

دراسة تاريخية وميدانية

بحث وإعداد: د. عبد الملك بن عبدالله بن دهيش

مكّة المكرّمة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة

استعراض سريع لمحتوياته

يتضمّن الكتاب المذكور محتويات تمدّدت على مساحة خمسمائة وثلاث وثلاثين صفحة، توفّرت ـ إضافةً إلى مواضيع الكتاب الرئيسيّة ـ على هوامش لإرجاعاته، وشرح المؤلّف في بعضها كلّ ما يصادفه من مفردات ومصطلحات تحتاج إلى التوضيح، مع بعض التراجم، وملحق خرائط، فيه اثنتان وأربعون خارطة للجبال، وآخر للصور ويشتمل على أربع وستّين صورة ملوّنة، تبيّن الأعلام، وبعضها توضح تحرّك المؤلّف وجولاته على مواقع حدود الحرم، وانتقاله من جبل إلى جبل وهو يبحث عن الأعلام المثبتة هنا وهناك بين الجبال وصخورها.

كما أنّ هناك صورة فوتغرافية لخطاب أرسله المؤلّف إلى بعض المعامل العالمية المتخصّصة في تحليل الآثار القديمة لمعرفة تأريخها.

ويضمّ الكتاب فهارس متعدّدة:

أوّلاً: فهرس الآيات.

ثانياً: فهرس أطراف الحديث والآثار مع ذكر الراوي.

ثالثاً: فهرس الأعلام مرتّب حسب الحروف الهجائية.

رابعاً: فهرس القبائل والأُمم.

خامساً: فهرس المواضع مرتّب حسب الحروف الهجائية.

سادساً: فهرس المصادر والمراجع وهما قسمان:

أ ـ المصادر المخطوطة والوثائق، وفيه اثنان وعشرون مصدراً.

ب ـ المصادر المطبوعة، وفيه اثنان وتسعون مصدراً.

سابعاً: فهرس الموضوعات.

أمّا هذا الفهرس فيحتوي على ثلاثة أبواب، تتضمّن فصولاً، وكلّ فصل يشتمل على مباحث متعدّدة.

وفيه:

المقدّمة: التي ذكر فيها ما كان يأمله في تحقيق هذه الدراسة، وأسبابها، والمصادر التي اعتمد عليها..

خطّة البحث: وتقوم على البحث العلمي الميداني، أي هي عبارة عن رحلة علمية تبحث عن أعلام مندثرة، لاكتشافها وتعيينها...

الباب الأوّل، وعنوانه:

تاريخ أعلام الحرم المكّي الشريف

وجهود المؤرِّخين المكّيين في ضبط حدوده

وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: تاريخ أعلام الحرم المكّي الشريف، ويبدأ من الصفحة ٣٥ وينتهي بالصفحة ٩٤.

الفصل الثاني: جهود المؤرِّخين المكّيّين في ضبط مواضع حدود الحرم الشريف، ويتضمّن مواضيع تتمدّد على الصفحات ٩٧ ـ ١٢٦.

الباب الثاني، وعنوانه:

مواضع حدود الحرم المكّي الشريف

وفيه أربعة فصول، في أعداد الأعلام ومواضعها في الجبال والثنيّات

والوديان. تتمدّد بحوثها على الصفحات ١٣٣ ـ ٣٤٥.

يحتوي الفصل الأوّل، وعنوانه: أعلام الحدّ الشرقي، على ستّة عشر مبحثاً من الصفحة ١٣٣ ـ ١٦٠.

فيما يشتمل الفصل الثاني، وعنوانه: أعلام الحدّ الشمالي، على اثنين وعشرين مبحثاً من الصفحة ١٦٥ ـ ٢٥٦.

أمّا الفصل الثالث وعنوانه: أعلام الحدّ الغربي، فيتضمّن خمسة مباحث من الصفحة ٢٦١ ـ ٢٨٤.

والفصل الرابع، وعنوانه: أعلام الحدّ الجنوبي، فيشتمل على أربعة عشر مبحثاً من الصفحة ٢٨٩ ـ ٣٤٥.

أمّا الباب الأخير، وهو الباب الثالث، فقد عنونه المؤلّف بـ(الخاتمة والنتائج).

خطة العمل:

وأنا أقرأ هذا الكتاب، رأيت أن لا بدّ لي من ذكر خطّة العمل، التي اتّبعها الدكتور في إنجاز مشروعه القيّم هذا، وهي تتلخص بما يلي:

فقد كان يسجّل ما يراه من أعلام على أوراق خاصّة، ويبدأ برسم مخطط للجبل من بدايته، وكلّما صعد أو مرّ بقمة جبل أثبتها على الرسم، وإذا ما مرّ بشعب وهو ما انفرج بين جبلين، يميناً كان هذا الشعب أو يساراً، أثبته على الرسم، ولا ينتهي من الرسم إلّا وقد انتهى الجبل، مستفيداً في عمله هذا من الرسم التخطيطي، فيذكر المسافة بين علم وآخر ووصف كلّ علم ومعالمه وحجمه واتجاهه.

وإن كانت عليه نورة يذكرها، كما يذكر حجارته المنحوتة والمرضوضة وانخفاضه وارتفاعه... فيقدم بهذا صورة متكاملة لكلّ علم وما يتعلّق به، ثمّ يذكر كيفيّة الارتباط بين هذا الجبل والآخر وارتباط الحدّ بينهما والأعلام؛ لكي تترابط مواضع الحدّ ترابطاً يمنع الشك والاضطراب عند القارئ، ويذكر أيضاً عدد هذه الأعلام ووصفاً عامّاً لحدود الجبل وأبعاده وحتّى لون حجارته...

وبعدانتهائه من عمله الميداني هذا، يعود إلىٰ مكتبه، ليرتّب جميع ما كتبه حتّىٰ اسم الجبل وضبط لفظه، إن وجد له اسماً قديماً، وما يعثر عليه من معلومات حوله في المصادر القديمة، ويذكر ما عليه من أعلام... ثمّ يتحقّق من صحّة مواضع تلك الأعلام، مستعيناً بالمصادر القديمة وبالعلماء والخبراء، قبل أن يبيّض ما رسمه وما خطّطه مراعياً الرموز والقياسات المثبّتة في الخرائط الجويّة المعتمدة لمكة المكرّمة.

فهو إذن يقوم برسم خريطة عامة، معتمداً علىٰ خرائط جويّة للجبال، التي يمرّ عليها الخط، الذي رسمه كحدّ لأعلام الحرم المكّي، ثمّ يستخلص من هذه الخارطة العامّة خرائط مكبّرة لكلّ جبل،أو ثنية أو مدخل لمكّة المكرّمة، ومواضع الأعلام علىٰ تلك الخرائط، فتأتي الخرائط منضبطة، وقد التزم بعمله هذا بالقواعد الأصوليّة لفنّ الخرائط، ذاكراً محيط الشكل المنحرف أو المتعرّج وارتفاعات قمم الجبال والخطوط البيانيّة الأخرىٰ...

ولم يكتفِ بذلك بل استعان بمكتب هندسي لمساعدته في تنزيل الأعلام علىٰ هذه الخرائط الجويّة، فكان عمله عملاً علمياً موفّقاً مستعملاً في مقاساته المتر الطولي، أمّا المسافات بين الجبال، فغالباً ما كان يقيسها بالسيّارة.

وعند انتهائه من مهمّته هذه، وجد أنّ الصور التي التقطها فاقت (٢٠٠٠) صورة، فراح ينتخب منها ما هو أجود وأصلح وأدلّ، فوضعه في بحثه هذا. كما أنّ ما تجمع بين يديه من أعلام الحرم المصوّرة قد بلغت (٦٤) صورة، هذه هي خطّته، التي سار عليها في وصف الأعلام ومواضعها.

***

فبعد رحلة الشيخ الدكتور ابن دهيش وتجواله الطويل، حول حدود الحرم المكّي، وبعد تلخيصنا لخطّة العمل والأبحاث التي ذكرنا عناوينها في استعراضنا المختصر هذا، وهي أبحاث ميدانيّة قيّمة جدّاً، وسجّلت منافع هي الأُخرى ذات قيمة علمية وبدرجة عالية، لا أبالغ إذا قلت: إنّها .. وبحسب ما تيسّر لي من

الاطّلاع ـ نادرةٌ وفاردةٌ في بابها وفيما توصّلت إليه من نتائج، وفيما تركته من آثارٍ كبيرة في دائرتنا المعرفية عن الحدود الجغرافية للحرم، قد لا نجدها بهذه المنهجة والترتيب والدقّة عند كلّ من كتب حول الحرم المكّي قديماً وحديثاً، ولا غرابة إن قلت: إنّها تعبّر عن منهج جديد، وطريقة مبتكرة في هذه الدراسات والبحوث، يستحقّ صاحبها منّا الشكر والتقدير والإجلال؛ لما بذله من جهود علميّة وفكريّة، وأخرىٰ متاعب نفسية وبدنية، لا يعلم بقدرها إلّا الله تعالى، والراسخون في دائرة مثل هذه الدراسات خاصّة الميدانية منها. حتّى اضطرّته لأن يعلن صراحةً: «فمن يقرأ هذه الدراسة بعين الإنصاف، يعرف مقدار الجهد البدني والنفسي والفكري، الذي بُذل فيها» ثمّ إنّه يعقّب، بعيداً عن الغرور العلمي، ودرءاً للتفاخر والتكاثر والعجب الذي يقتل صاحبه.. فتراه يعيد الفضل في كلّ ذلك إلى الباري تعالى ولأجل قبوله ورضاه، فيقول: «والفضل كلّه لله سبحانه وتعالى، ومنه نرجو القبول، وجزيل الثواب».

ونحن بدورنا نقرأ: ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**﴾ ونسأله تعالى أن يجعله ذخراً له: ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ**﴾.

فبعد كلّ هذا التطواف والتجوال، يصل الشيخ إلى اللابدّية التي يصرّح بها بقوله: «لابدّ من تقييد ما خرجت به هذه الدراسة من نتائج واقتراحات».

ثمّ راح يسجّل أهمّ هذه النتائج، التي تمخّضت عنها دراسته، إضافةً إلى الاستنتاجات والتنبيهات، التي نثرها شيخنا الجليل هنا وهناك في ثنايا بحوثه، لا تغيب عن القارئ الكريم.

القراءة:

بعد هذا التعريف المختصر للكتاب، تبدأ قراءتنا لأبواب الكتاب فصولاً وبحوثاً، مبتدئينها بالأهمّ الذي تحوم الدراسة حوله وهو ما ذكره الدكتور في مقدّمة كتابه ص ١١: «وكان لابدّ أن أستعرض الحدود، كما ذكرها لي بعض من

سألته عن حدود الحرم، فقال أكثرهم: إنّ الحدود:

أ) الحدّ الشرقي: (قرْن) في منتصف (وادي عُرَنَة)، ثمّ (جبل عارض)، ثمّ (قرن العابديّة)، ثمّ (جبل نَمرة)، ثمّ (جبل الخَطْم)، ثمّ (جبل الستار)، ثمّ (شرفة أسلع)، ثمّ (عارض الحصن)، ثمّ (جبل المقطع)، على (ثنية خَلّ)، ثمّ (ستار لحيان).

ب) الحدّ الشمالي: (ثنية النقواء)، ثمّ (جبال حمر) بعد هذه الثنية حتّى تصل إلى (شرفة بشم)، ولم تُسمّ (الجبال الحمر) باسم، وبعد (شرفة بشم) (جبل نعمان)، ثمّ (التنعيم)، ثمّ جبل (نعيم)، ثمّ (ريع رَحا) ثمّ (ريع المصانيع)، ثمّ (ريع العُمير)، ثمّ (ريع المُريد)، ثمّ (الأعشاش).

ج) الحدّ الغربي: جبل (أظلم)، ثمّ الجبال الصغيرة التي عند رأسه، حتّى يوازي (أُمّ هشيم).

د) الحدّ الجنوبي: (أُمّ هشيم)، ثمّ (الدومة الحمراء)، ثمّ (جبل بُشيم)، ثمّ (جبل لين)، ثمّ (جبل الستار) ـ جبل ستار لحيان ـ ثمّ (جبل الغربان)، ثمّ (ثنية المستوفرة)، ثمّ (البيان)، ثمّ (جبل غراب)، ثمّ (مهجرة)، ثمّ (صيفة). أُنظر الصحفة ١٢ـ١٣.

كلّ هذه كانت مشمولةً لتتبّعه ودراسته الميدانيّة، فرأى في رحلته هذه (٩٣٤) علماً، تحيط بالحرم المكّي، كانت مبثوثة هنا وهناك على الجبال، انهدم ثلثها أو أكثر، وقد تناولها المؤلّف بالبحث في الباب الثاني من كتابه هذا موضعاً وعدداً وصوراً وخرائط.

ونحن نشاركه عجبه، الذي استولى عليه من صبر أولئك الأجداد، على تحمّل المشاق والصعاب، وهم يحملون على ظهورهم الماء والنورة أو الصخر، ويتسلّقون تلك الجبال التي ترتفع أكثر من (٥٠٠م) عن سطح البحر، وانحدارها الشديد، ليصلوا إلى قمها، لكي يضعوا علماً، فعثر على أعلام كانت مبنيّة هناك بالصخر المنقور المنحوت، وبالنورة البيضاء، فكيف استطاعوا أن يوصلوا الماء

الكثير للبناء، والنورة الكثيرة إلى هذه القمم الوعرة الصخرية المرتفعة، وهي قليلة الشجر، منعدمة الماء، شاهقة الارتفاع، ملتهبة الحرارة؟!

وقفة إعجاب وإكبار!

نعم، لقد استوقفتني عبارة في الصفحة ٩ من كتابه هذا، وهو يذكر ما عاناه من صعوبات عمله، وما لا قاه من أتعاب طيلة رحلته التي كان عمرها تسعة أشهر، وكيف تنسيه ذلك فرحة حصوله على مراده، فيقول بعد أن يجد الفاكهي يصرّح بمواضع هي من حدود الحرم، جبال وثنايا وأراض منبسطة، وغير ذلك، وأنّ هناك أعلاماً على هذه المواضع: «فكنت أذهب بشغف ولهفة إليها، وأتسلّق الجبال، وكم تكون فرحتي غامرةً وشديدةً عندما أجد تلك الأعلام التي ذكرها الفاكهي، وكم تكون فرحتي أشدّ وأكثر عندما أجد على هذه الأعلام آثار النورة البيضاء[1] القديمة. ولقد كانت هذه الفرحة تنسيني التعب والمشقّة في تسلّق العالي من الجبال، وتنسيني ما يدخل في قدميّ من أشواك، وما يسيل منها من دماء».

وعبارته الأُخرى وهو يصف تطوافه في هذا الوادي وجباله...

«عندذلك قرّرت إكمال معرفة هذه الأعلام والوقوف عليها جميعاً، مهما كلّفني ذلك من جهد ومشقّة، وهذا يعني السير حول مكّة المكرّمة ليس بالسيّارة وعلى أرض منبسطة سهلة، وإنّما على جبال مرتفعة، قد يصل ارتفاع بعضها إلى أكثر من(٢٥٠٠) فوق سطح البحر، بعضها لا يؤمن من تسلّقها من وجود الأفاعي والهوامّ والوحوش، ويخشى أن تزلّ القدم، فأقع في وادٍ عاقبته وخيمة لا قدّر الله، وهذا يعني أيضاً أن أسير على قدميّ الساعات تلو الساعات على أرض جبلية وعرة

(١) أي الجير الأبيض، ويستعمل في البناء قديماً والذي يسمّونه الآن «الجص» أو «كبريتات الكالسيوم»،، وقد طلبت، والكلام للدكتور المؤلّف، من مركز الأبحاث بالمتحف الرئيسي بفرانكفورت بألمانيا تحليل عينة من الأحجار الجيرية المذكورة لمعرفة تاريخ عمارتها، فوردني الجواب المرفق صورته في ملحق الصور، ومضمونه أنّه ليس من السهل تحديد عصر هذه العيّنات الجيرية.

يابسة، لا يُرى فيها ماء ولا خضرة...».

لقد استوقفتني هذه الصعوبات الكبيرة والخطيرة التي يذكرها الدكتور، طويلاً، فرحت هناك أنظر بعيداً بعيداً في عمق التاريخ، وأستحضر ما أراه وكأنّه أمامي، إنّه ذلك الشيخ الكبير القادم من بعيد بأهله، يقطع الفيافي والوديان والجبال وصخورها، لقد احتواه العراء الواسع هذا، وسرحت عيناه فيما يحيطه، وقد توزّعت نظراته هنا وهناك، يرمق السماء ببعضها مبتهلاً وداعياً، فيما يحنو ببعضها الآخر على ولده الوحيد يومذاك، وزوجته المطيعة الأمينة، التي اختارتها السماء لوظيفة.. هي الأُخرى ظلّت عيونها تارةً تحلّق بعيداً.. جبال صخورها وعرة.. وديان جدباء.. فيافي قاحلة.. صحاري ملتهبة.. إذن ماذا يريد منّا هذا الشيخ الكبير؟!

فراحت عيونها تحلّق تارةً بعيداً وقد يصيبها الدوار ممّا ترى.. وتارةً أخرى تحملق في وجه نبيّ الله دون أن ترى علامة أو تسمع كلمة لعلّها تهدئ روعها وتطمئن بها نفسها.. وثالثة نحو رضيعها فتذرف دموعها خوفاً عليه، والذي اختارته السماء لدور آخر لا يقلّ عظمة عن دور أبيه وأُمّه.. ثمّ تعود من نظراتها هذه نحو السماء، لتستنزل بعبراتها وبرقّتها المعروفة وعواطفها الجيّاشة رحمة السماء.

ظلّ الثلاثة هكذا ما إن يجتازوا هضبة إلّا لينحدروا في أخرى، وما إن يعبروا وادياً جديباً، حتّى يهبطوا آخر أكثر منه جفافاً وجدباً.. في أرضٍ نائية لا زرع فيها ولا ظلال.. حتّى هبطوا البطحاء، إنّها بطحاء مكّة، حيث محطّ رحالهم ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ هناك تركهم إبراهيم؛ ليعود من حيث أتى، مع زادٍ يسير وماء قليل، ولكن ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

تذكّرني كلمات الشيخ الدكتور بهذه المرأة العظيمة، وهي ترى نفسها وحيدةً في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع، إلى أين أنت ذاهب يا إبراهيم؟

ولمن تتركنا في هذا الوادي الموحش المقفر؟

إن كان لي ذنب، فما ذنب الرضيع؟

وراحت تستعطفه، فأبان لها وقد رقّ قلبه، وهو قلب رقيق رحيم، ودمعت عيناه... الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان وهو يكفيكم.

فتجيبه: إذن «لن يضيّعنا الله».

رحلة عظيمة من أجل هدف عظيم، رحلة شاقّة مريرة محفوفة بالمخاطر من أجل مبادئ سامية ومفاهيم عظيمة..

فمكثت هاجر ترعى وليدها، وتأكل ممّا تركه إبراهيم عليه السلام حتّى نفد ماؤها وقلّ زادها وجفّ ثدياها، فتعالى صراخ طفلها، وهنا بدأت رحلة أخرى أقسىٰ وأمرّ.

حيث بدأ العطش يأخذ أثره ويحزّ في كبدها وكبد رضيعها، الذي راح يلوك بلسانه يبحث عن قطرة ماء في فضاء فمه المتيبِّس، فاندفعت هنا وهناك تعلو صخرة وتهبط أخرى، وعاشت في دوّامة بين سرابين، وقد تمثّل لها على الصفا والمروة ما حسبته ماءً، وهي لا تعلم بأنّ جهدها الشاقّ هذا سيكون يوماً منسكاً عظيماً من مناسك أرادها الله لعبادته، فراح الملايين بأجيالهم التي لا تحصى يسعون بينهما، فرحم الله حبر الأُمّة ابن عبّاس، وقد رأى قوماً يطوفون بين الصفا والمروة أو يسعون بينهما، فقال: هذا ما أورثتكم أُمّكم أمّ إسماعيل. إذن فهي وقفة إعجاب وإكبار للثلاثة الذين خلدوا لنا هذا فخُلدوا!

* * *

الباب الأوّل: تأريخ أعلام الحرم المكّي الشريف، وجهود المؤرِّخين المكّيّين في ضبط حدوده.

وفيه فصول:

الفصل الأوّل: تاريخ أعلام الحرم المكّي الشريف، وقد تناول المؤلّف في هذا الفصل، وتحت عنوان فرعي: «اختيار الحرم على سائر الأرض».

تناول موقع مكّة المكرّمة، وأنّها تقع ضمن سهل تهامة الساحلي الممتدّ على طول ساحل البحر الأحمر من أقصى شماله عند خليج العقبة إلى نهايته الجنوبية عند باب المندب، وفي منطقة تحيط بها التلال القاحلة الجرداء والصخور والجبال المتشابكة والأودية الجرانيتية، على دائرة العرض ٢٥ / ٢١ْ شمالاً، وخط طول ٣٩/٤٩ْ شرقاً، وترتفع عن سطح البحر بحوالى ٣٦٠متراً، وأنّ مكّة المكرّمة تشكّل مركز الأرض، وتعتبر منتصف العالم، ممّا يجعلها جديرة بأن تكون مركزاً لدعوة تعمّ العالم، مستعيناً بما توصّل إليه أحد الباحثين المسلمين وهو الدكتور حسين كمال الدين في بحثه القيّم المنشور في مجلّة البحوث الإسلامية لسنة ١٣٩٥ ص٢٨٩ وعنوانه: إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكّة المكرّمة، وقد أعدّ هذا الباحث خريطة للكرة الأرضية يحدّد من خلالها اتجاهات القبلة وإن بعد المسلمون عن الكعبة.

ثمّ تحدث عن عظمتها وحرمتها وآداب الدخول إليها، وعن منع المنكر والظلم والأذى فيها ذاكراً آيات قرآنية وأحاديث نبويّة وأقوال جمع من الصحابة والمفسّرين والمؤرّخين.

وتحت عنوان فرعي: «متى حرّمت مكّة المكرّمة؟!» يصل المؤلّف ـ وانطلاقاً من الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة ـ إلى أنّها حرمت يوم خلق السماوات والأرض، فعن ابن عبّاس، قال النبيّ ﷺ يوم فتح مكّة: «... فإنّ هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض...» ذاهباً إلى أنّ الحكمة في تحريمها التزام ما يثبت لمكّة وحرمها من أحكام.

«المسجد الحرام هو الحرم كلّه» وتحت هذا العنوان ذكر المؤلّف أنّ المسجد الحرام ذكر في القرآن في مواضع عدّة، وقد استدلّ ببعضها أنّ المسجد الحرام هو الحرم كلّه بحدوده، والكتاب هذا بصدد التعريف بها، ومن هذه الآيات: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ...**﴾ وأنّ المسجد المذكور يطلق على

جميع الحرم، وبالآية الأُخرى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ وقد نزلت والرسول نائمٌ في بيته، فالمسجد هنا يعني مكّة..

وتحت عنوان فرعي: «المواقيت ودوائر الحرم» ذكر المؤلّف أنّ الكعبة تحيط بها دوائر ثلاث، وراح المؤلّف يعدّدها، دائرة المسجد، دائرة الحرم، دائرة المواقيت.

فالمسجد: هو حرم المسجد مهما وسع أو زيد فيه من الزيادات.

والحرم: هو ما أحاطت به أعلام الحرم، وهو موضوع بحث هذا الكتاب.

والمواقيت: مواضع حدّها الشارع وهي ذو الحليفة، والجحفة، وذات عرق، وقرن المنازل، ويلملم.

وهناك عنوان فرعي «سبب تحريم الحرم» ذكر المؤلّف تحته روايات متعدّدة في سبب تحريمه وكيف حرّم، فذكر أربعة أسباب وخامسها ما ذكره محبّ الطبري في القرى لقاصد أُمّ القرى: ٦٥٢ من الوجوه الأربعة في ذلك.

أمّا في «خصائص الحرم المكّي وأحكامه» فقد ذكر تحت هذا العنوان الفرعي خصائص مكّة المكرّمة وما يوجب الاستيطان والاستقرار والاطمئنان فيها، من خلال آيات قرآنية وأحاديث نبويّة، منها: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا﴾ ومنها: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾..

والأجر والثواب على ما يؤدّيه الإنسان من أعمال سواء أكانت أعمالاً عبادية أم غيرها من أعمال البرّ والخير، فيتضاعف الأجر فيها، وتتضاعف السيّئة كما عند بعض العلماء.

ثمّ بعد هذا كلّه ينتقل المؤلّف إلى بداية موضوعه الرئيسي في هذا الكتاب إلى «تجديد أعلام الحرم المحيطة به» مبتدئاً عنوانه هذا بعنوان فرعي وهو:

أوّل من وضع أعلام الحرم، وبدءاً يقول: لا شكّ أنّ معرفة حدود الحرم من أهمّ ما ينبغي أن يعتنى به، فإنّه يتعلّق به أحكام كثيرة، وقد اعتنى بذلك

الأنبياء عليهم السلام، والصحابة والتابعون وأئمّة المسلمين وفقهاء الإسلام.

فعن ابن عبّاس: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث يوم الفتح ـ وهو السنة الثامنة من الهجرة ـ بتميم بن أسد الخزاعي، فجدّد أنصاب الحرم.

وأنّ إبراهيم وضع هذه الأنصاب يريه إيّاها جبريل.

وفي تفسير الآية: ﴿أَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[1] وهو قول إبراهيم عليه السلام، نزل إليه جبريل فذهب به، فأراه المناسك، ووقفه على حدود الحرم، فكان إبراهيم يرضم الحجارة، ويحثي عليها التراب، وكان جبريل يقفه على الحدود[2]، فأوّل من نصب هذه الأعلام هو إبراهيم عليه السلام بدلالة جبريل.

وهذه العلامات مبنيّة في جوانب الحرم الأربعة، وما زالت موجودة وتجدّد في كلّ عصر عند حدوث تلف فيها. ويطلق عليها العلماء (أنصاب الحرم) أي حدود الحرم من عموم جهاته، كانت رضوماً كما سمّيت بالأحاديث، ثمّ بنيت بعد ذلك.

وقد مرّت هذه الأعلام بعد إبراهيم وإلى أن جدّدها رسول الله صلى الله عليه وآله بعمليات تجديد متعدّدة لها.

وراح المؤلّف يذكر هؤلاء الذين جدّدوها مبتدئاً ذلك بإسماعيل عليه السلام، وعدنان ابن أدد، وقصيّ بن كلاب، ثمّ قريش أثناء البعثة، ثمّ بعد ذلك تجديد النبيّ صلى الله عليه وآله لأعلام الحرم.

فيقول: «لم يكن باستطاعة النبيّ صلى الله عليه وآله أن يجدّد أعلام الحرم قبل الهجرة، حيث لم يكن يملك سلطة يومذاك، لكنّه ما كادت أقدامه تصل إلى مكّة فاتحاً عام (٨هـ) حتّى أرسل من يقوم بهذه المهمّة العظيمة».

وذكر المؤلّف في هذا الخصوص أخباراً تبيّن أسماء من أرسلهم النبيّ صلى الله عليه وآله بهذه

---

(١) البقرة: ١٢٨.

(٢) انظر في هذا الطبقات الكبرى لابن سعد ٤: ٢٩٥، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ١: ١٨٥، ومصنّف عبد الرزاق ٥: ٢٥، وأخبار مكّة للأزرقي ٢: ١٢٨، ١٢٩.

الوظيفة فقد كلّف تميم بن أسد، والأسود بن خلف، أمر بهذا مع عظيم مشاغله وخطورة الأعداء، علماً بأنّه لم يبق في مكّة ـ على أصحّ الروايات كما يقول المؤلّف ـ إلّا عشرة أيّام، وراح يذكر مسؤولياته الجسام وأعماله الجليلة التي عليه إنجازها في هذه الأيّام المعدودة، ومع هذا لم ينس تجديد أعلام الحرم، فكم هي مهمّة إذن؟!

ولهذا نالت اهتماماً كبيراً من لدن الصحابة والخلفاء والأُمراء، بدءاً بتجديدها من قبل الخليفة الثاني ومروراً بتجديد الخليفة الثالث حتّى قامت هيئة في زمن عثمان بن عفّان مهمّتها تجديد الحرم وأعلامه كلّ عام.

إلّا أنّ المصادر ـ كما يقول المؤلّف ـ سكتت عن التجديد في أيّام عليّ عليه السلام وأيّام خلافته إنّما قضاها في معالجة ما جدّ من الأحداث، ثمّ إنّه أقام في الكوفة، وربّما أنّها لا تحتاج إلى تجديد لقرب العهد في تجديدها.

ثمّ راح المؤلّف يذكر الذين قاموا بعملية التجديد من معاوية وعبد الملك بن مروان، فالمهدي العبّاسي، وفي زمن هذا الأخير اقتصر التجديد لأعلام رؤوس الجبال، أو توقّف، أو أنّ المؤرّخين سكتوا عن ذلك، لكنّهم لم يسكتوا عن تجديد أعلام الطرق المؤدّية إلى مكّة، ولو رأوا شيئاً أو سمعوا شيئاً لكتبوه، فيما كان التجديد في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وما بعده حتّى المهدي العبّاسي يشمل جميع أعلام الحرم من جميع جوانبه، سواء التي كانت على رؤوس الجبال، أو التي تقع على الطرق الرئيسيّة المؤدّية إلى مكّة.

أمّا بقيّة خلفاء بني أميّة أو بني العبّاس غير المذكورين أعلاه، لم يعرف عنهم أنّهم جدّدوا أعلام الحرم، ولم يعرف عن خلفاء هذا العصر أي بعد المهدي العبّاسي إصلاحات في أعلام الحرم، اللّهمّ إلّا في عهد الراضي.

أمّا الدليل الذي ساقه المؤلّف على توقّف تجديد أعلام الحرم على رؤوس الجبال، فيقول: ودليلي على ما أقول: إنّني سرتُ حول الحرم باحثاً عن الأعلام، التي على رؤوس الجبال، فرأيت (٩٣٢ عَلَماً) بعضها متساقط، ما عدا علمين

أحدهما مبنيّ والآخر مرضوم رضماً جيّداً، ثمّ إنّ بعض الأعلام منذ سقوطها لم تحرّك حجارتها، وهذا يدلّ على توقّف تجديد أعلام الحرم، التي فوق رؤوس الجبال، منذ عهد المهدي العبّاسي، أي منذ ما يزيد على اثني عشر قرناً من الزمان.

ثمّ يخلص المؤلّف إلى أنّ أعلام الحرم الدائرة به قد جُدّدت عشر مرّات.

بدءاً بتجديد إسماعيل عليه السلام ومروراً بتجديد عدنان أدد وقصي بن كلاب وقريش أثناء البعثة، ثمّ تجديد النبيّ صلى الله عليه وآله، فتجديد عمر بن الخطّاب، وعثمان، وانتهاءً بتجديد معاوية وعبد الملك فالمهدي العبّاسي.

***

هذا بالنسبة إلى ما يتعلّق بالأعلام المحيطة بالحرم إحاطة السوار بالمعصم كما يعبّر المؤلّف عنها.

وأمّا بالنسبة للنوع الثاني من هذه الأعلام وهي الواقعة في مداخل مكّة المكرّمة، فلا يزال التجديد والتحديث يتعاهداها من زمن إلى زمن حتّى وقتنا الحاضر، والمداخل المذكورة هي:

- من طريق المدينة: ثلاثة أميال عند بيوت السقيا، ويقال لها: بيوت نِفار، وهي دون التنعيم.
- من طريق اليمن: سبعة أميال عند إضاة لِبْن.
- من طريق العراق: سبعة أميال على ثنية خَلّ، وهو جبل بالمقطع.
- من طريق الطائف: من بطن نمرة، فذلك أحد عشر ميلاً عند طرف عرفة.
- من طريق الجعرانة: تسعة أميال في شعب عبدالله بن خالد.
- من طريق جدّة: عشرة أميال عند منقطع الأعشاش.

وهذه الأعلام جدّدت سبع مرّات من قبل كلّ من:

□ الراضي العبّاسي، من جهة التنعيم سنة ٣٢٥هـ.

□ المظفّر صاحب أربل، من جهة عرضة سنة ٦١٦هـ.

□ المظفّر صاحب اليمن، من جهة عرفة سنة ٦٨٣هـ.

□ قايتباي، من جهة عرفة سنة ٨٧٤هـ.

□ السلطان أحمد خان الأوّل العثماني، من جهة عرفة، وأعلام التنعيم، وأعلام الحرم التي في طريق يلملم سنة ١٠٢٣هـ.

□ رمّم الشريف زيد بن محسن حدود الحرم سنة ١٠٧٣هـ.

□ السلطان الغازي عبد الحميد خان العثماني أعلام التنعيم سنة ١٢٦٢هـ.

أعلام الحرم في طريق التنعيم سنة ١٢٦٢هـ.

أعلام الحرم في طريق جدّة سنة ١٢٦٣هـ.

نكتفي بهذا آملين مواصلة تعريفنا بهذا الكتاب وقراءته في العدد القادم من مجلّتنا ميقات الحجّ إن شاء الله تعالىٰ.